غضب الرّب و طلب الشفاعة من الأنبياء و قولهم : «نفسى ، نفسى» و رجوعهم بالاضطرار .

أقول : و يحتمل وجهاً آخر و هو أن يكون المراد ممّا بين أيديهم صور المعلومات الجزئية الحسيّة أو البديهيّات ، و ما خلفهم صور المعقولات الكلية أو النظريّات ، لتقدّم الأولى و تأخّر الثانية بالقياس الى الانسان و عدم حصول الثانية له الّا بوسيلة سبق الأولى ـ كما قيل «مَن فقد حساً فقد علماً» .[1]

و حاصله أنّه تعالى عالم بجميع الأشياء ـ جزئيّة كانت أو كلية ـ و من جملتها الشافع و المشفوع له ، و الجهة التى بها يستحق الشفعاء للشفاعة ، و المشفوع لهم للاستشفاع ـ دون غيره ، حتى أنّ الشفعاء لا يعلمون من أنفسهم أنّ لهم من الطاعة مايستحقون هذه الدرجة الرفيعة و المنزلة العظيمة عند الله سبحانه ، و لا يعلمون أنّه سبحانه هل صيّرهم مأذونين فى الشفاعة أم لا؟بل يستحقون المقت و الزجر ، فانّ العزّة لله جميعاً ، والممكن بحسب ذاته متخمّر من الكدورة و الظلمة المنشأة عن ماهيّة الامكانيّة ، و إنّما المنوّر لها و المخرج إيّاها من العدم و الابهام الى الوجود و التحصيل ، و من القصور و النقصان الى التمام و التكميل هو الحق تعالى القيّوم بذاته ، الذى يعطى نور الوجود لمّا يشاء ، كلّ بحسبه و يصطفى من الملائكة و البشر رسلا و أنبياء و يكسيهم كسوة العزّة و البهاء و القدرة و الغنى ، و منزلة الهداية و الشفاعة فى الأولى و العقبى .

المقالة الثامنة

فى قوله سبحانه : ﴿و لا يحيطون بشىء من علمه إلّا بما شاء﴾

و فيه اشارات :

[الاشارة] الأولى

[جميع الموجودات حاضرة عنده تعالى]

قال الرازى فى الكبير[2] : «إنّ المراد من «العلم» هنا المعلوم كالخلق بمعنى المخلوق ، و فى الأدعية : «اللّهم اغفرلنا علمک فينا»[3] أى : معلومک . أو لاترى أنّه إذا ظهرت آية عظيمة قيل : «هذه قدرة الله» أى مقدوره ، و المعنى : أنّ أحداً لايحيط بمعلومات الله تعالى» .

---

١ . تفسير ابن عربى ، ج١ ، ص٥٦

٢ . تفسير الرازى ، ج٧ ، ص١١

٣ . فتح البارى ، ج١١ ، ص٤٧٤ ؛ حقائق التأويل ، ص٩٦ ؛ التبيان ، ج٢ ، ص٣٠٩

أقول : لمّا علم فى القرينة السابقة أنّ جميع الموجودات ـ سواء كانت كلية أو جزئية ، معقولة أو محسوسة ، صوراً علميّة أو محالا ادراكيّة ، أو آلات و مشاعر ـ حاضرة عنده تعالى بحيث يكون نفس وجودها فى أنفسها نفس علميّتها و معلوميّتها له تعالى من غير تضاعيف الصور الادراكيّة ، فجميع الموجودات يكون معلوماً ـ أى صوراً علميّة و معلومات بأنفسها لا بصورة مستأنفة أخرى ـ فاذا كان الأمر كذلك تكون العلوم كلّها معلوماً له تعالى ، و المعلومات كلّها معلومات و علوماً له تعالى معاً ، فكلّ ما يعلمه أحد منّا يكون بعضاً من علومه تعالى ـ سواء كانت علوماً لنا أو معلومات ـ .

فحينئذ لا يحتاج الى ارتكاب المجاز ، لكن لمّا كان العلم عند هذا القائل مجرّد الاضافة احتاج الى ذلك ، لأنّ الاحاطة لا تتعلّق بالاضافة و لا التبعيض يناسبها .

الاشارة الثانية

[تفسير قوله تعالى : «...إلّا من ارتضى من رسول»]

إنّه لا يعلمون الغيب إلّا من جهة اطلاعه تعالى بعض ملائكته أو أنبيائه على بعض الغيب ، كما قال : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾(الجن (٧٢) : ٢٧) .

الاشارة الثالثة

[علمه تعالى بذوات المجعولات علماً فعليّاً ، و هو المشيّة الالهيّة]

إنّه لمّا ثبت أنّ لعلمه تعالى مراتب بعضها متقدّم على بعض و علّة له ، و بعضها متأخّر عنه و معلول له ، و المتأخّرات عين ذوات الأشياء ، فيكون علمه تعالى بذوات المجعولات التى هى من مراتب علمه بوجه علماً فعليّاً ، و هو المشيّة الالهيّة أيضاً ، لأنّ علمه الذى هو فى مرتبة ذاته عين ارادته التى هى فى تلك المرتبة بالذات و يعبّر عنها بالمشيّة الذاتيّة ، و كذا كلّ مرتبة من مراتب علمه عين ارادته فى تلك المرتبة ، إذ مراتب الارادة على وزان ما علمت فى مراتب العلم ، فلا محالة تكون علوم غيره معلّلة عن مشيّته الأصليّة فلذا قال : ﴿و لا يحيطون بشىء من علمه إلّا بما شاء﴾ أى بسبب مشيّته ؛ لأنّ «الباء» سببيّة و «ما» مصدريّة ، لا أنّها صلة «يحيطون» ـ كما يتبادر الى الأذهان أوّلا ، و إن كان له وجه أيضاً ، لأنّ ما ذكرناه ألطف و أربط بما سبق و أليق بكلام الحق ، لدلالته على أنّ مشيّته سبب لعلومهم ، لا أنّ متعلّقها متعلّق علومهم .

الاشارة الرابعة
[فى الجعل البسيط]

إنّ المناسبة بين الشيء و المشيّة ممّا تحقّق مذهب القائلين بالجعل البسيط بمعنى أنّ الجاعل بهويّته و شيئيّته علة لهويّته المجعوليّة و شيئيته و الآية مشعرة بذلک لاشعاره بأنّه تعالى بمشيّته التى هى عين ذاته و عين علمه بذاته، يفيد شيئيّة علمه الذى هو عين معلومه، فتكون ذاته مشيء الأشياء و مذوّت الذوات و محقّق الحقائق ـ كما عليه الرواقيون من الحكماء ـ بل ذات الذوات و حقيقة الحقائق ـ كما عليه المكاشفون الواصلون من العرفاء.

الاشارة الخامسة
[ضمير الجمع فى قوله تعالى: ﴿ولايحيطون﴾راجع الى أهل المحيّة والولاية]

أن يكون ضمير الجمع فى﴿و لايحيطون﴾راجعاً الى أهل المحبة و الولاية، الواصلين الى مقام الاستغراق و المشاهدة، فيشاهدونه تعالى بالمشاهدة العقليّة و يشاهدون الأشياء بنور ذاته، فيكون الحق لهم سمعاً و بصراً كما وقع فى الحديث المشهور، فالمعنى: لايحيطون بشيء من علمه إلّا بمشيّته التى هى ذاته، فبذاته يعلمون الأشياء و به يسمعون و به يبصرون، كما أنّ به يقدرون على شيء ممّا كسبوا.

و ذلک لفنائهم عن هويّاتهم و قصر نظرهم عنها الى ذاته و تخلّقهم بصفاته على ما يعلمه الراسخون فى العلم و المعرفة من غير لزوم شيء من المحالات كصيرورة صفاته تعالى ـ التى هى عين ذاته ـ صفات العبد، أو حلول ذاته فى ذات العبد ـ كما توهمّه المحجوبون عن نسبة القيّومية التى لايشابهها شيء من النسب، لأنّها ليست بالحاليّة و المحلية، و لا الاقتران و المزائلة، و لا الاتحاد و المغايرة، و لا المماسّة و المباينة و لا الملاصقة و المحاذات، و لا المواصلة أو المفاصلة، بل هى نسبة مجهولة الكنه يعبّر عنها بأمثلة جزئيّة مقربة من وجوه و مبعدة من وجوه لمن يكن من أهل المشاهدة ـ فضلا عن الذين لايكونون من أهل المشافهة كأهل الوقت، حيث ليسوا ممّن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد، فليسوا من الواصلين للعين، و لا من السامعين للأثر.